أميرُ الأطِبّاء

تأليف:
نوّار عضايلة

و
روان صدر

رسوم:

وُلِدْتُ في مَدينَةٍ كَبيرَةٍ وجَميلَةٍ، في زَمَني
كانَ اسْمُها «ري»، وتُسَمُّونَها الآنَ «طِهران».
كُنتُ طِفْلًا سَريعَ التَّعَلُّمِ والحِفْظ.
أَحْبَبْتُ الموسيقى، وتَعَلَّمْتُ العَزْفَ على العودِ.
كَبِرْتُ في «ري» وعَزَفْتُ فيها أَجْمَلَ الأَلْحانِ.

عِنْدَما أَصْبَحْتُ شابًا، أَدْرَكْتُ أَنَّ القِراءَةَ هِيَ مِفْتاحُ النَّجاح. كُلَّ لَيْلَةٍ، كُنْتُ أَقْرَأُ لِساعاتٍ إلى أَنْ يَغْلِبَني النَّوْمُ. قَرَأْتُ كُتُبًا مُتَنَوِّعَةً وعَرَفْتُ حِينَذاكَ أَنَّني أَميلُ إلى نَوْعٍ مُعَيَّنٍ مِنَ العُلوم... إنَّها الكيْمياء.

القِراءةُ جَعَلَتني أَعْرِفُ أَنَّ ما يَنْقرؤُه يكونُ صَحيحًا أَحْيانًا وخطأً أَحْيانًا أُخْرى، وأَنَّه لا بُدَّ مِنْ إجْراءِ التَّجارِبِ لِلتَّأَكُّدِ مِنْ صِحَّةِ ما أَجِدُهُ في الكُتُبِ. وَفَّرتُ النُّقودَ لِأَشْتَرِيَ القَوارير والأَدَواتِ الَّتي أَحْتاجُ إِلَيْها في تَجارِبي.

ذَلِكَ كُلُّه، جَعَلَ مِنّي

كيْميائِيًّا بارِعًا،

وكما يُقالُ:

«لِكُلِّ مُجْتَهِدٍ نَصيبٌ».

ذاتَ لَيْلَةٍ، كُنتُ أَعْمَلُ عَلى تَجْرِبةٍ، وخَرجَ مِنَ التَّفاعُلِ غازٌ سامٌّ. وما هِيَ إلّا لَحْظاتٌ، حَتّى وَقَعْتُ عَلى الأَرضِ مُغْمًى عَلَيّ، أَسْرَعَ صَديقي لِإنْقاذي وكانَ طَبيبًا.

لازَمَني أيامًا وهُوَ يعالِجُني مِنْ أثرِ ذَلِكَ الغاز. كانَ يَصْنَعُ لِيَ الأَدْوِيَةَ مِنَ الأَعْشابِ المَطْحونَةِ والمَغْلِيَةِ حَتّى شُفيتُ.

- مِنْ أَينَ جِئْتَ بِهَذِهِ الأَعْشابِ يا صَديقي؟

- مِنْ حَديقَتِكَ يا «مُحَمَّد»، أُنْظُر حَوْلَكَ! كُنْ حَذِرًا في المَرَّةِ المُقْبِلة، فَنَحْنُ بِحاجَةٍ إلى كيمْيائِيٍّ بارِعٍ.

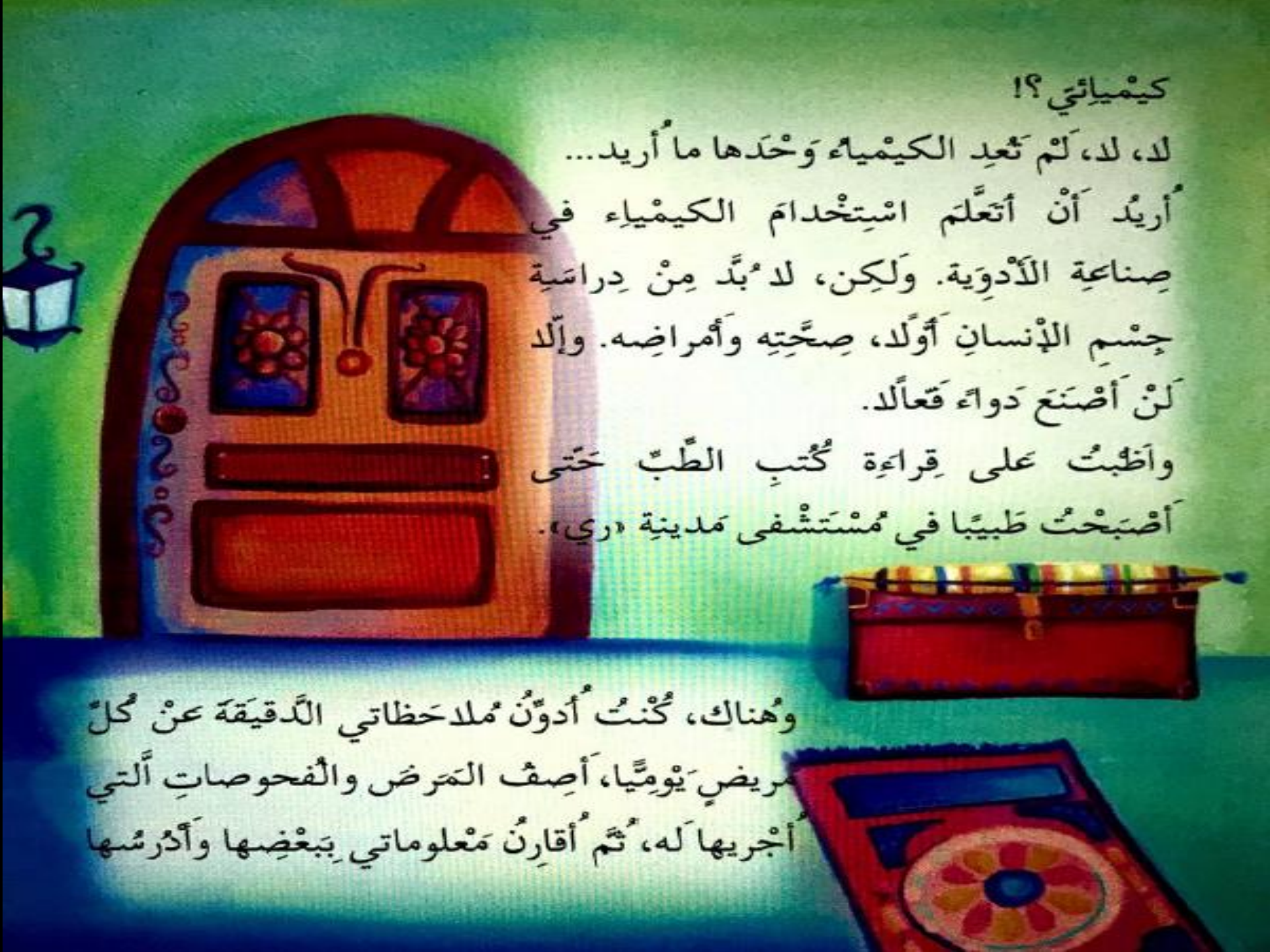

كيْميائِيّ ؟!

لا، لا، لَمْ تَعُدِ الكيْمياءُ وَحْدَها ما أُريد...

أُريدُ أَنْ أتعَلَّمَ اسْتِخْدامَ الكيمْياءِ في صِناعةِ الأَدْوِيَة. وَلكِن، لا بُدَّ مِنْ دِراسَةِ جِسْمِ الإنسانِ أَوَّلًا، صِحَّتِهِ وَأمراضِه. وإلّا لَنْ أَصْنَعَ دَواءً فَعّالًا.

وَاظَبْتُ عَلى قِراءَةِ كُتُبِ الطِّبِّ حَتّى أَصْبَحْتُ طَبيبًا في مُسْتَشْفى مَدينةِ «ري».

وهُناك، كُنْتُ أُدوِّنُ مُلاحَظاتي الدَّقيقَةَ عَنْ كُلِّ مَريضٍ يَوْمِيًّا، أَصِفُ المَرَضَ والفُحوصاتِ الَّتي أُجْريها لَه، ثُمَّ أُقارِنُ مَعْلوماتي بِبَعْضِها وَأَدْرُسُها

فَأتوصّلُ بِذَلِك إلى المَرضِ والعِلاجِ المُناسِبِ لَه.

وذلك ما تسمّونه اليوْم: «المُشاهدات السّريريّة».

لقد كُنتُ أوّلَ منْ أوْجَدَ هذهِ الطّريقة.

في أحد الأيام، دخل المُستشفى مَريضان، قيل لي إنهما مصابان بالمرض نفسه. كانت الأعراض متشابِهة جدًا. وكعادتي، بدأت بتسجيل ملاحظاتي عن كلّ واحد منهما. ثم درست وحللت ما سجلتهُ من ملاحظات.

وبعد أيام عدة... يا إلهي!

إنهما مصابان بمرضين مُختلفيْنِ تماما. وبِالتأكيد سيكون العلاجُ مختلفا أيضا.

كنت بهذا أول من فرق بين «الجُدريّ» و«الحصْبة». وقد كان الأطباء قبل ذلك يعتقدون أنهما مرضٌ واحد.

ولأنه ينبغي أن يعرف الناس جميعا الفرْق بين هذين المرضين. ألفت كتابا ترجِم إلى لغات عدة، وكان سببا في شفاء الكثيرين حول العالم. لقد غير هذا الاكتشاف تاريخ الطِّبّ والدواء.

رسالة في
الجدري والحصبة

ذاعَتْ شُهرتي في مَدينَة «ري». ثُمَّ وَصَلتْ إلى «بَغْداد»، وكانَ الخَليفَةُ آنذاك يَتوي بِناءَ مُسْتَشْفى كَبير ومُتَطوِّر. ولِهذا أمر باسْتِدْعاءِ أمْهَرِ الأطِبّاء وكُنْتُ أنا مِنْهُم.

- ما هُوَ المَكانُ الأنسبُ لِبناءِ المُسْتَشْفى يا أبا بَكْر؟

- يَجِبُ أنْ يُبنى في مَكانٍ صِحِّيٍّ أيها الخَليفة، في مَكانٍ مُعَرَّضٍ لأشِعَّةِ الشَّمْسِ والهَواءِ النَّقِيّ، حَتّى يُساعِدَ جَوُّهُ النَّظيفُ في عِلاجِ المَرْضى.

وبدأتُ أبحثُ عنِ المكانِ الأنسب، وكانَ ينبغي أنْ أفحصَ صحّةَ اختياري قبلَ أنْ يبدأَ البناء. فكّرتُ طويلًا حتّى خطرتْ ببالي فكرةٌ... قطعُ اللّحم. سأستخدمُ قطعَ اللّحم!

اخْتَرتُ المَكانَ الَّذي صَمَدَتْ فيهِ قِطْعَةُ اللَّحْمِ أطول مُدَّةٍ قَبلَ أنْ تَتَعَفَّن.
وُبِنيَ المُسْتَشْفى، كانَ صَحْمًا مُقَسَّمًا إلى أجْزاءٍ عِدَّةٍ، فيهِ غُرفٌ لِلمَرْضى
في جَناحَيْنِ مُنْفَصِلَيْنِ لِلرِّجالِ والنِّساء. وكانَتْ فيهِ مَكْتَبَةٌ كَبيرَةٌ، وصالاتٌ
لِتَعْليمِ الأَطِبّاء، وأُخْرى لِلتَّرفيهِ عَنِ المَرْضى. فيهِ أيضًا مَزارِعُ كَبيرَةٌ لِزِراعَةِ
الأَعْشابِ اللّازِمَةِ لِتَحْضيرِ الأَدْوِيَة. وكانَ الماءُ يَجْري فيهِ بِشَكْلٍ مُسْتَمِرٍّ.
لَقَدْ كانَ هَذا الصَّرْحُ أوَّلَ مُسْتَشْفى حَديثٍ في تاريخِ البَشَرِيَّة.

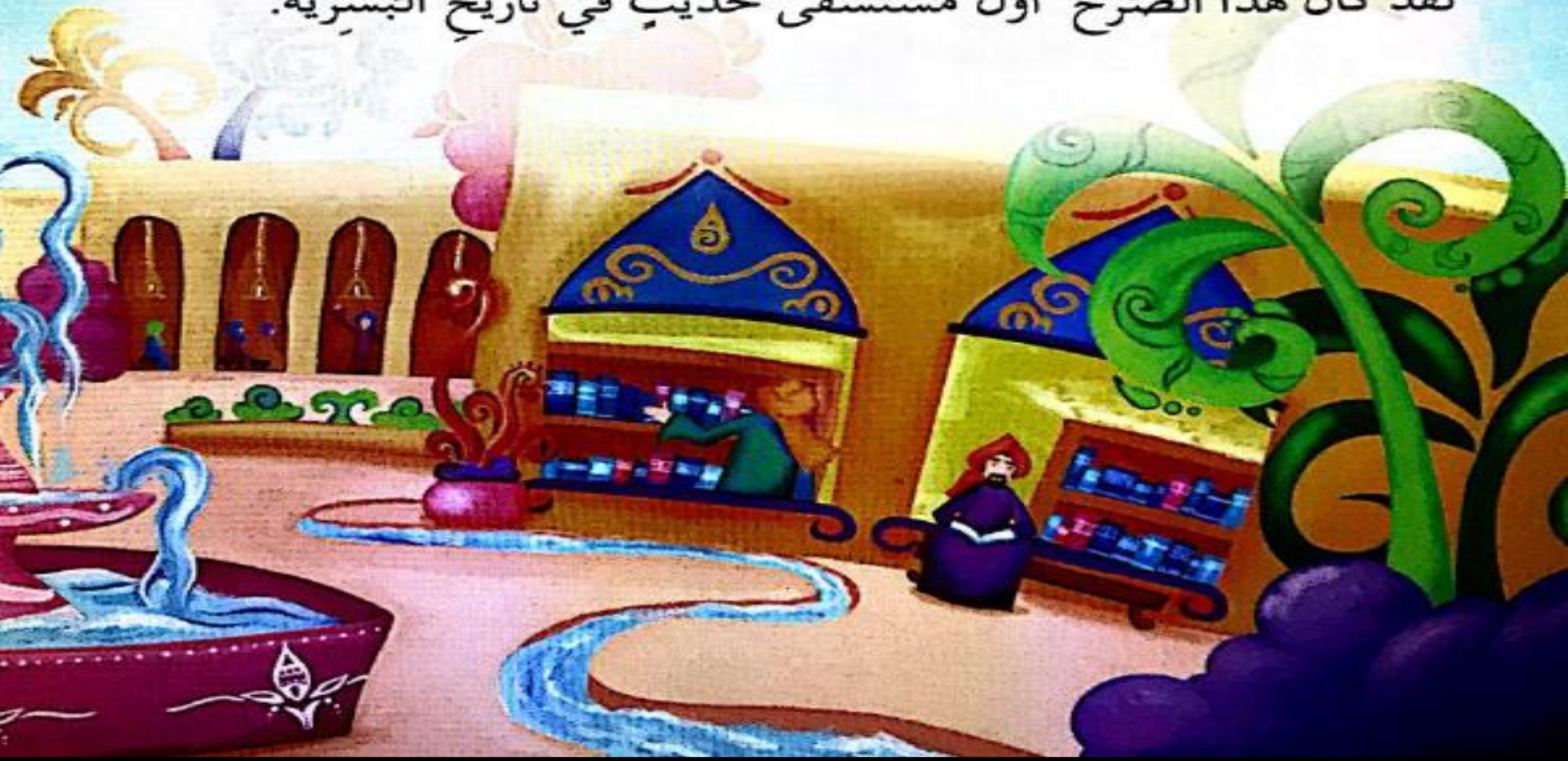

أَحْضَرْتُ الرُّواةَ لِيَرووا القِصَصَ لِلمَرْضى فَيُسَلُّونَهم وُيخَفِّفوا عَنهُم الأَلم. وفي قاعاتِ التَّعْليم، كُنْتُ أُعلِّم تَلامِذَتي أَنْ يَزْرَعوا الأَمَلَ بِالشِّفاءِ في نَفْسِ المَريض، فَهُوَ أَهَمُّ خُطْوة مِنْ خُطُواتِ العِلاج. كُنْتُ أَحُثُّ الأَطِبّاءَ عَلى مُعالَجَةِ الفُقَراءِ مَجّانًا ومُعامَلَةِ المَرْضى بِاللُّطْفِ والكلامِ الطَّيِّب. والأَهَمُّ مِنْ ذَلِك الابتعادُ عَنِ الغُرور. فَالطِّبُّ مِهْنَةُ الرَّحْمَةِ والرِّقَّة.

عَلَّمْتُ تَلاميذي أَيضًا أَنَّ حَياةَ الإِنْسانِ ثَمينَةٌ ولا مَجالَ فيها لِلخَطَأِ أَوِ التَّجْرِبَةِ. لِذَلِكَ كُنتُ أُجَرِّبُ الأَدْوِيَةَ والأَساليبَ الطِّبِّيَّةَ على الحَيواناتِ أَوَّلًا، فَإِنْ نَجَحَت، اسْتَخْدَمْتُها لِعِلاجِ النّاس.

وكانَ في بَيْتي بَعْضُ القُرودِ أُجْري عَلَيْها تَجارِبي.

ذاتَ لَيْلَةٍ، زارني صَديقي وكانَ موسيقيًّا يَعزِفُ أُلحانًا عَذْبَةً. قَضى اللَّيْلَةَ عِنْدي تارِكًا آلاتِهِ الموسيقيَّةَ في الحَديقَة.

وفي الصَّباح، اسْتَيْقَظْتُ عَلى صَوْتِ صُراخِه!

ألتهم القِردُ الأوتار كُلها! كانَ صديقي يَصيحُ عَيظًا، أما أنا فَقَدْ كُنتُ أنظر إلى القِرد بِاهتِمام، وفكرةٌ ما تُراوِدُني... لكِن، كانَ عَلَيَّ أنْ أتأكَّد مِنها.

راقَبتُ القِردَ أيامًا عِدَّة، ولا أثرَ للأوتارِ في فَضلاتِه ولَمْ يَظهَر عَليه أيُّ تَعبٍ أو مَرض. كانَ يَقفِزُ ويَتحَرَّك بِخِفَّة ونشاطٍ، وكأنَّ شَيئًا لَمْ يَحدُث. لَقَدْ ذابَتْ تِلكَ الأوتارُ تمامًا في مَعِدَةِ القِردِ مِن دونِ أنْ تُترك أيَّ ضَرَر.

كانَتْ أوتارُ الآلاتِ الموسيقيَّةِ في زَمانِنا تُصنَعُ مِنْ أمعاءِ الحَيوانات. إنها الكَنزُ الذي طالَما بَحَثتُ عنه والحَلُّ لِمُشكِلَةٍ طالَما عاناها الأطِبّاءُ والمَرضى. نَعم، سأُغلِقُ الجُروحَ الداخِلِيَّةَ بِهذهِ الأوتارِ مِنْ دونِ الحاجَةِ لإزالَتِها لاحِقًا.

وداعًا للأساليبِ القديمة، وأهلًا باكتِشافي الجَديد: خُيوط الجِراحة!

في السابق كان على الطبيب بنر العضو ثم كيّه لإيقاف النزيف. لكن خيوط الجراحة التي صنعتها من أمعاء الحيوانات مكنت الأطباء من إغلاق الجروح الداخِلِيةِ بسهولة، ولا تزال تستخدم حتى عصركم هذا.

مرت الأيام والسنوات، ولم أترك القراءة يوما. جمعت بين خبرتي في الكيمياء والطِّب، فصنعت الأدوية وجربتها لمعرِفة أثرِها الضار. وفي كلّ مرة، كنت أصل إلى النتيجة نفسها! كُل دواء كيميائيٍّ يحمل بعض الأضرار الخفية، أما العلاج المصنوع من الطبيعة فلا أضرار لهُ أبدا.

قدمت للعالم بعدها شرحا مفصلا عن تَحضير الدواء، مما يجده الناس في بيوتِهم وحدائقِهم في كتاب أصْبح دليلا للعلاج في بيوت «بغداد» كلِّها.

وَبَعْدَ أَنْ تَقَدَّمَ بي العُمْرُ وَأَصْبَحْتُ شَيْخًا كَبيرَ السِّنّ، مُحْدَثُ إلى مَدينَتي «ري»، وَأَمْضَيْتُ فيها بَقِيَّةَ أَيامي أَكْتُبُ وَأُدَوِّنُ كُلَّ ما عِنْدي مِنْ مَعْرِفَةٍ وَمَعْلوماتٍ وَخِبْراتٍ وَتَجارِبَ لِيَسْتَفيدَ مِنْها كُلُّ مَنْ يَقْرَؤُها.

لِذَلِك تُرجِمَتْ كُتُبي إلى لُغاتٍ عِدَّة، واسْتَفادَ مِنْها العالَمُ بِأَسْرِه.
أَلَّفتُ أَكْثَر مِنْ مِئَةِ كِتابٍ، أَشْهَرها كانَ كِتاب: «الحاوي في الطِّبّ» و«سِرُّ الأَسْرار» في الكيْمياءِ وغَيْرِها الكثير. إلّا أَنَّ عَدَدًا كبيرًا مِنْها ضاعَ في الحُروبِ الَّتي شُنَّتْ عَلى بَغْداد، ودُمِّرَتْ مَكْتَباتِها العَظيمَة.

قَدَّمتُ مَعَ غَيري مِنْ أَجدادِكُم العُلَماءِ لِلبَشَرِيَّةِ اكْتِشافاتٍ أَضاءَتْ طَريقَ النّاسِ وسَهَّلَتْ حَياتَهُم... وإذا قَرأْتُم تاريخَ الطِّبِّ والعُلومِ سَتَجِدونَ أَنَّ كَثيرًا مِنْ عِبارة: «أَوَّلُ مَنْ» تَرتَبِطُ بِاسْمي، أَنا «أَبو بَكْر مُحَمَّد بِنْ زَكَرِيّا الرازي».

والآن، حانَ الوَقْتُ لِأُوَدِّعَكُم. تَذَكَّروا جَيِّدًا: «النَّجاحُ أَساسُهُ التَّجْرِبَة، والتَّجْرِبَةُ تَعْتَمِدُ على المَعْرِفَة، والمَعْرِفَةُ تُبنى كَما يُبنى الصَّرْحُ مِنَ القِراءَةِ المُسْتَمِرَّة.

القِراءَةُ هِيَ مِفْتاحُ النَّجاح!».

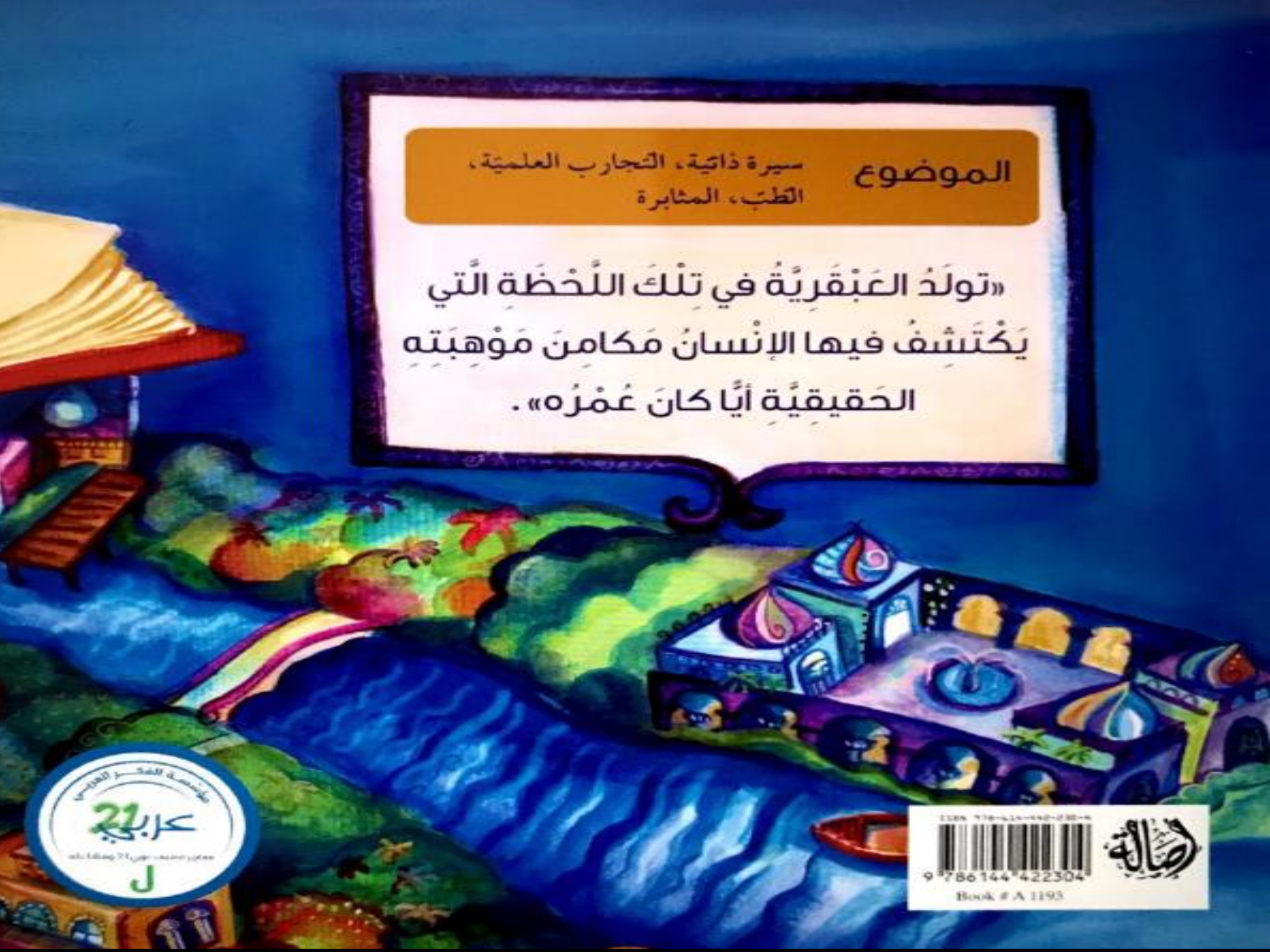
الموضوع
سيرة ذاتية، التجارب العلمية، الطب، المثابرة
«تولَدُ العَبْقَرِيَّةُ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ الَّتي يَكْتَشِفُ فيها الإنْسانُ مَكامِنَ مَوْهِبَتِهِ الحَقيقِيَّةِ أيًّا كانَ عُمْرُه».
أصالة
Book # A 1193